نظرة في تاريخ يافا

بقلم حضرة الاب ا. س. مرمرجي الدومنيكي
استاذ المبد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

١

يافا مدينة من المدن الفلسطينيَّة . فتأريخها مرتبط غاية الارتباط بتاريخ هذه البلاد العام ، واحقاب تاريخ هذا القطر ، هي عين الاحقاب التي مرت بها فلسطين . وما يقال من باب الاطلاق عن عامة المدن الفلسطينيَّة ، يقال من باب الحصر عن يافا . لانها كانت بمنزلة معبر بين البلاد المختلفة ، وباباً لفلسطين ، ومدخلاً للقدس . ولذا فشهرتها كانت متصلة غاية الاتصال بشهرة اورشليم .

اسمها

ان اسم يافا ، حسبما حققه علماء الألسُنيَّة السامية ، فنيقي الاصل ، ومعناه : « الجميلة » . وهو اسم منطبق غاية الانطباق على مسماه . فان الجمال قد كان سمة يافا ، على كرور الازمان . فقبل ٣٢ قرناً ، اشتغف بهذا البهاء احد السياح المصريين ، واعجب بما شاهده في ضواحيها من الجنان الفتَّانة . وفي القرون الوسطى دعاها احد الزوَّار : « جمال البحار » . وفي هذه الحقبة الاخيرة قال عنها احد الشعراء الفرنسيين : « انها اطيب مقرّ لمن يتوق الى الراحة بعد العناء »

وقد جاء ذكر هذا الاسم بلفظة « يَاپُو » في قائمة اسماء المدن التي افتتحها طوتمس الثاني ، فرعون مصر . وكان من السُلالة الثامنة عشرة ، اي من اوائل القرن الخامس عشر ق. م. وهذه القائمة وجدت مكتوبة على جبهة هيكله العظيم في الكرنك . ثم ورد هذا الاسم بصورة « يَاپُوأُو » مرتين في رسالات تل العمارنة : اولًا في رسالة « عبد هيا » امير القدس ، الذي استنجد

الفرعون في ساعة الضيق . ثانياً في رسالة « يابيتري » امير يافا وغزة ، على ما يأتي بعضه : « ليسأل الملك سيدي عامله ، ولينظر هل حافظت على باب « خازاتو » (غزّة) « ويَاپُواُو » اي يافا . ورسالات العمارنة ، كما لا يخفى على لبيب ، هي قسم من سجلّات أمينحُوتيب الرابع وسلفه . وهي طائفة مهمّة من التحارير وَجّه اكثرهـا امراء فلسطين وسورية الى الفرعون . وقد كتبت باللغة البابلية ، وبالخط المسماري ، في القرن الرابع عشر ق. م. لان هذه اللغة بخطها هذا ، كانت منتشرة في هذه الديار ، بمنزلة لغة رسميّة سياسيّة . ثم وُجد اسم يافا ، في قائمة سنحاريب ملك اشور ، الذي عاش في القرن السابع ق.م. وهذا نصّ ما يتعلق بها : « في اثناء حملتي حاصرت « بيت داكّون ، ويَاپُواُو ». اما اليونان ، فعند استيلائهم على البلاد ، بدّلوا اسمها فدعوهـا « جُوپي : Joppé » واليهود سموهـا « يافو » كما جاء ذلك في سفر يشوع ، وفي سفر الملوك ، واخيراً في سفر المكابيين . واطلق عليها الفرنجة ، منذ عهد الصليبيين ، اسم « جَافا : Jaffa » وبقي اسمها عند العرب « يافا » وهو الحالي

موقعها

قد خصّت الطبيعة يافا بفضل جزيل ، بجعل موقعها موقعاً ذا خطورة كبرى . فان المدينة القديمة كانت راكبة على رابية صخرية تعلو نحو ٣٠ متراً عن الحضيض ممّا كان يُسهّل معهُ الإشراف على جميع السهول المجاورة . واماً من جهة البحر القائمة على ساحله ، فكانت نحو ٥٠ متراً فوق سطحه . زد على هذا الفضل فضلاً آخراً وهو ان هذه القمّة هي المكان العاصي الوحيد على ساحل البحر ، بين الديار المصرية وجبل الكرمل . ومناعة هذا المحل آتية من سلسلة الصخور المنبسطة في اسفلها . وهي بحالها الطبيعية على شبه دائرة ، نشأ منها مرفأ وليد الطبيعة ذاتها . اماً من وراء الربوة ، فترى بقعة خصبة . وخصبها هذا ما هو الّا من فضل وجود الرابية القائمة من جهتيها الشماليّة والجنوبيّة ، وقد اضحت لها بمنزلة حاجز يقيها خطر الرمال الكثيرة المنتشرة في غيرها من المواقع الساحلية ، تلك الرمال التي لولاها لتمتّعت هذه البقاع

بالخصب والرغد ، كما يشاهد ذلك في يافا . فان المدينة من هذه الجهة محاطة بالبساتين والرياض الحاوية اشجار البرتقال ، وغيرها من ذوات الاثمار اليانعة ، وقد كانت ولا تزال زينة يافا وعلة شهرتها .

اما مرفأها فانه ، على ما هو عليه من الضيق والحرَج ، كان في غاية الملاءمة للمسافرين ، لوجوده في ملتقى الطرق التي كانت تسير فيها قوافل التجار ، وجيوش الفاتحين . ولذا فالقوَّة الطبيعيَّة ، والخطورة الحربية ، والخصب في الاراضي ، كلها مزايا وخواصّ قد تضامنت فجعلت ليافا موقعاً في غاية الخطورة من الوجهة التجارية ، والعسكرية ، اذ لم يكن هناك من جيش يمرّ في تلك الديار ، الّا ويحسب لهذا المعقل البري والبحري الف حساب .

عصور تاريخها

يافا مدينة من اعرق المدن قدماً . فان نحن صدَّقنا مُتخيَّلات القدماء ، رقينا بها الى قبل الطوفان ، او لا اقل من ان نعزوها الى يافث بن نوح الذي يُقال ، في هذه المتخيَّلات او الخرافات ، انهُ بانيها ؛ وذلك لما بين اسمه واسمها من الشبه .

امّا العصور المنقسم اليها تاريخها ، فتعدّ بموجب ازمان الامم التي حكمتها بذات حكمها فلسطين :

١ً : فالعصر الاول عصر الاوائل والمجاهيل ؛ من القرن الاربعين ق . م . الى القرن الخامس والعشرين ق . م .
٢ً : عصر المصريين القدماء ؛ من القرن ٣٥ الى القرن الثامن .
٣ً : عصر الاشوريين والبابليين والفرس ؛ من القرن الثامن الى الرابع .
٤ً : العصر اليوناني اليهودي ؛ من القرن الرابع الى منتصف القرن الاول ق . م .
٥ً : العصر الروماني البوزنطي ؛ من القرن الاول ق . م . الى القرن السابع ب . م .
٦ً : العصر العربي ؛ من القرن السابع الى الحادي عشر ب . م .
٧ً : العصر الفرنجي او الصليبي ؛ من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر .
٨ً : العصر المماليكي ؛ من الثالث عشر الى السادس عشر .
٩ً : العصر التركي ؛ من السادس عشر الى بدء العشرين .
١٠ً : العصر الحالي

١ً عصر المجاهيل

الظاهر من ابحاث العلماء أن هذه السواحل البحرية لم توهل بالبشر الّا نحو الالف الرابع ق. م. وقد كان اول سكانها من سكان المغاور ، اتوها من جهات شرقي الاردن ، احترافاً للصيد . وكان الساحل مقسوماً الى قسمين اولهما القسم الشمالي وهو المدعو في التوراة بوادي صارُون . وثانيهما القسم الجنوبي وهو ما سمي بالبلاد الفلسطينيّة.

آراء العلماء مختلفة في شأن مهد الساميين ، اي ابناء سام بن نوح ، الذين تفرقوا الى شعوب كثيرة منهم العرب ، والبابليون الاشوريون ، والارميون ، والكنعانيون ، والفنيقيون ، والعبريون ، والحبشة ، وغيرهم . والرأي الارجح اليوم ، بين ارباب الشأن ، ان مقامهم الاصلي كان بلاد العرب ، منها نزحوا الى جميع البلاد التي نشروا فيها حضارتهم ، وفيها توسعت ، وتباينت السنتهم

ففي الالف الثالث ق. م. ظعن من جزيرة عربية ، نحو هذه الاصقاع ، اقوام من الساميين الرحل . وكان في مقدمتهم الفنيقيون ، والكنعانيون . وعقبهم ، في هجرة اخرى ، غيرهم ، اهمهم العبريون . وآخر نزحة كانت نزحة العرب المسلمين ، اما الفنيقيون فنزلوا سورية ، ولبنان ، واما الكنعانيون ، فلسطين.

٢ً العصر المصري القديم

كانت بداية هبوط المصريين هذه البلاد في اوائل الالف الثالث ؛ وقد جاوزوها عن طريق جزيرة سيناء . والواضح من المصادر انهُ منذ السُلالة السادسة المصرية ، اي نحو القرن الخامس والعشرين ، شرع الفراعنة ينقلون جنودهم اليها ، بطريق البحر . ولا يستبعد ان يافا ، وهي المرفأ القريب من البرية ، اضحت عصر ذاك ، القاعدة البحرية للمصريين ، في فلسطين . على ان هذا الامر ، مع ما فيه من الخطورة ، لم يأتِ ذكره الّا في عهد طوتمس الثالث ، من السلالة الثامنة عشرة . كما رأينا عند ذكر اسم يافا.

والذي يُستنتج من رسالات العمارنة هو ان يافا كانت في القرن الرابع عشر قلعة مهمّة ، ومحط رحال الجيش المصري ، وكان يحكمها حاكم وطني ، باسم ملك مصر .

وفي عهد رعمسيس الثاني ، انقرضت السُلالة التاسعة عشرة . وهذا الزمان هو الذي يعيّن فيه العلماء خروج الاسرائيليين من مصر . وفي غضون تلك السنين ، عبروا نهر الاردن ، مقبلين الى جنوب فلسطين ، ممّا مكّنهم برهةً من احتلال يافا ، اذ لم يجدوا ادنى مقاومة من المصريين . والذين نزلوها من اليهود ، كانوا من سبط دان ، على ما ذكرت التوراة ، الّا انهم ، لعيشهم عيشة البداوة ، لم يدم زمن حكمهم فيها . ولمّا طردهم السكان ، اضطروا الى النزول نحو نواحي الشفلتة ، او البقاع المنحطة ، الفاصلة جبال اليهودية ، عن سواحل البحر .

الفلسطينيون

في تلك الآونة ، ظهر الفلسطينيون على ابواب يافا . وهم الذين جاء ذكرهم في كتابات العمارنة ، باسم «پولستي: Pulisti» ، والذين سماهم المصريون: «اقوام البحار» . امّا اصلهم فمن آسية الصغرى ، اي الاناضول . وسبب نزوحهم الى هذه الديار ، هو انهُ هجم عليهم قبائل غربيّة ، فاضطروا الى مغادرة البلاد ، فهاجروا مجتازين بسورية ، واتوا فلسطين ، ووجهتهم مصر . الّا ان رعمسيس الثالث ، من اهل القرن الثاني عشر ، كسر جيوشهم ، واوقفهم عند الشفلتة فاستقروا فيها . فدعيت هذه النواحي الساحلية «فلسطين» باسمهم . وبعد ذلك بزمان ، عمّ هذا الاسم ، كل البلاد المدعوة بهِ . وواصل العبريون محاربة الفلسطينيين مدة طويلة ، وقصدهم من ذلك ان ينزعوا منهم ديارهم ، ويفتحوا لهم منفذًا الى البحر ، فلم يفلحوا . ولما كان العبريون والفلسطينيون في قتال غير منقطع ، كان الفراعنة ينظرون اليهم بعين السرور والاطمئنان ، إذ كانوا يجدون في ذلك من الامان والصيانة لحدود بلادهم الآسيوية . غير انهُ لمّا كُسرت شوكة الفلسطينيين ، وظهرت من الاشوريين

مطامع في الفتح والتبسّط في جهات الغرب ، وكان ذلك نحو القرن العاشر ق.م. حينئذٍ جاء المصريون يخطبون ودّ العبريين ، وكانت قد نشأت لهم مملكة ، وحاولوا التحالف معهم بمعاهدة ، جرت بالمصاهرة ، تبعاً لعادات تلك الازمان . وهذا كان سبب تزوّج سليمان الملك بنت فرعون . وكان مهرها مقتل جازَر ؛ وبفضل ذلك ، أجيز لسليمان التصرّف بمرفأ يافا ، حيث كانت ملاحة حيرام ملك صور ، تُوصِل الارز من لبنان ، لبناء هيكل اورشليم ، كما جاءت اخبار ذلك مفصّلة في التوراة . وقد استعمل سليمان هذا المرفأ غير مرة ، حين كان يرسل كل سنة ، الى حيرام القمح ، والزيت ، والخمر ، عوض ما كان يأتيه منهُ ، من الارز(١ . وحين كان يوفد الرسل ، لاستجلاب الذهب ، من اوفير .

ومِمّا اشتهر بهِ مرفأ يافا حادث يونان النبي المعروف . اذ انهُ لمّا حاول الهرب من وجه الرب ، الذي امره بالذهاب للكرازة في نينوى ، قصد يافا ، ومن مرفأها ركب سفينة ، كانت مقلعة الى ترسيس . وغير خاف على احد ما حلّ بهِ من القاء الملّاحين لهُ في اليمّ ، وكيف ابتلعه الحوت ، وبعد ثلاثة ايام قذفه الى الشاطئ .

٣ العصر الاشوري البابلي الفارسي

مِمّا جاء في الرُقُم المسمارية أن هَدَد نيراري ، ملك اشورية ، احتلّ فلسطين . وكان ذلك في القرن الثامن . ودونك ما ورد مسطّرًا في اخبار حروبه :

« احتللتُ بيلستّه ، الى حدود البحر العظيم ، بحر مغرب الشمس » (اي المتوسط) . وبعد هذا الملك بزمان ، جاء تغلاتپلاسر ، الى نجدة احاذ ، ملك يهودا . فاحتلّ سورية ، وسار الى فلسطين ، واستولى على مدنها ، وجلا اهلها ، وجلب عوضهم الى هذه البلاد ، اقواماً من بابل ، وارمينية ، وغيرهما . ومن ملوك اشورية سنحاريب الشهير الذي عقب اباه شركينا على سرير

١) راجع تفصيل ذلك في مشرق هذه السنة ، ص (٤٩٦-٥٠٢) و (٥٧١-٥٧٢)

الملك . فهو ايضاً اجتاز سورية ، ونزل الساحل ، وقهر المدن ، فسلّمت اليه ، الّا بعضها ، فانها لم تخضع الّا بعد المقاومة . وذلك ظاهر من النصوص المسمارية ، ودونك بعض ما جاء فيها ، في ذا الشأن:

« في اثناء حملتي حاصرت بيت داكّون ، ويَاپُو ، وبيت بركا ، وأرزري ، مدينة صدقيا ، التي لم تسلّم اليّ بسرعة ، فخربتها ، وغنمت غنائم كثيرة »

وبعد سنحاريب ، بقيت فلسطين ، ويافا ضمنها ، في حكم الاشوريين ، الى ان توفي احد كبار ملوكهم ، وهو اشور بانيپال . فعند وفاته ، كان ملكه قد تضعضعت اركانه لكثرة الحروب ، ولطموح شعوب عاهليته الى الاستقلال.

امّا في عهد المملكة البابلية الكبرى الاخيرة ، التي تأسست بعد خراب نينوى ، في القرن السادس ق. م. فدخلت فلسطين في حكم البابليين ، بعد معركة كركميش الشهيرة الواقعة قرب الفرات ، وفيها كانت النصرة لنبوكدنصر الثاني البابلي على المصريين . وفي اواسط القرن الخامس استولى كورش الماذي على بابل ؛ وبذا العمل ، دخلت في حوزته جميع البلاد التي كانت خاضعة لها ، وفي جملتها فلسطين ومدنها الساحلية ، وفي عدادها يافا . وفي ذلك الزمان ، اذن كورش لليهود بالعودة الى ديارهم ، فلسطين ، ليبنوا المدينة المقدسة ، وهيكل سليمان ، الذي كان قد هُدم. واباح لهم بان يقطعوا الارز من لبنان. فاعطوا الصوريين والصيداويين ، زيتاً وخمراً ، لكي يأتوا اليهم بالارز ، بطريق البحر ، فيزلوه في يافا ، حسب الاجازة الممنوحة لهم ، من الملك كورش ، كما جاء ذلك مفصّلا في سفر عزرا. (للبحث صلة)